النقد

لاتينيون وسكسونيون

لم أكن أحب أن تنقل المناقشة بين الاستاذ العقاد وبيني من نقد اللاتينيين ونعد السكسونيين الى الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية. ولست أحب أن تنقل المناقشة الى هذا الموضوع. ولست أريد ولا أستطيع أن أجاري الاستاذ العقاد في المفاضلة بين هاتين الثقافتين.

ذلك لأني أحب الثقافتين جميعا وأوثرهما جميعا وأريد أن أتثقف بهما جميعا بل أريد أن أتثقف بكل ثقافة أستطيع أن أصل اليها أو أن أظفر منها بحظ سواء كان ذلك من طريق القراءة في النصوص الاولى أو من طريق القراءة في التراجم. واذا كنت اشكو شيئا أو أضيق بشيء فهو أن قدرتي ووقتي لا يسمحان لي بأن أقرأ كل شيء وأن آخذ من كل ثقافة بطرف قوي أو ضعيف طويل أو قصير. ولم أفهم قط مناقشة في تفضيل ثقافة على ثقافة أو ايثار ثقافة على ثقافة بالقياس الى أديب كالاستاذ العقاد، أو الى رجل مثلي كل همه أن ينتفع ما استطاع بالثقافات الانسانية على اختلافها.

بل أذكر أن مسألة الثقافات المختلفة قد فرضت نفسها على فرضا في بعض الاوقات حين كنت أستطيع أن أوجه التعليم في بعض البيئات المصرية بعض التوجيه. فكرهت دائما أن أوثر ثقافة على ثقافة، ووقفت دائما موقف الخصومة العنيفة من الذين كانوا يريدون أن يفرضوا على مدارسنا الثقافة اللاتينية أو الثقافة السكسونية. ودعوت وسأدعو دائما إلى أن تكون مدارسنا وجامعاتنا ملتقى لاعظم حظ تمكن من الثقافات. وأن يترك للطلاب وأسرهم حق الاختيار بين هذه الثقافات. وقد دعوت وسأدعو دائما الى ألا تفرض على طلابنا وتلاميذنا لغة بعينها من لغات أوربا الكبرى. وانما تدرس هذه اللغات الكبرى كلها في المدارس ويختار منها الطلاب وأسرهم ما يشاءون. وحجتي في ذلك أن للثقافات كلها قيمة خصبة وأن منفعتنا الصحيحة انما تتحقق يوم نأخذ منها جميعا بحظوظ مختلفة فلا نكون أسرى الانجليز ولا أسرى الفرنسيين ولا أسرى الالمان وانما نكون مصريين قبل كل شيء يأخذون بحظهم من الثقافات الحية حسب أمزجتهم ومنافعهم وحاجاتهم وطاقاتهم أيضا. واذا كان هذا مذهبي في الصلة بيننا وبين الثقافات الحية فمن غير المعقول أن أجادل في تفضيل ثقافة على الأخرى. والذين قرأوا الفصل الذي كتبته في الرسالة يذكرون أني لم أوثر اللاتينيين على السكسونيين ولم أفضل هؤلاء على اولئك، وانما أنكرت ومازلت أنكر على الاستاذ العقاد زعمه أن النقاد اللاتينيين يؤثرون الظواهر والاوضاع الاجتماعية وينعون النكت ومراسم الصالونات على حين يعنى النقاد السكسونيون ببساطة الطبيعة وبالرجل من حيث هو رجل.

هذا بالضبط هو موضوع الخلاف بين الاستاذ العقاد وبيني. ويبدو لي أن الاستاذ قد يرى في الفصل الذي كتبه رداً على من أن يكون قد أراد أن يعم اللاتينيين جميعهم بهذا الحكم. فهذه البراءة في نفسها انصاف لهؤلاء النقاد اللاتينيين الذين جنى عليهم مدح الاستاذ أنطون الجميل لشعر شوقي رحمه الله.

وليس الدفاع عن النقاد اللاتينيين نصباً لثقافتهم اللاتينية أو تنكراً لثقافة السكسونيين وانما هو العلم ينفي أن يقر الاشياء في نصابها. وليس من الحق بحال من الأحوال أن نقد اللاتينيين كله أو أكثره أو نصفه أو ثلثه كما أراد الاستاذ العقاد أن يصوره؛ وانما النقد اللاتيني كان دائما ومازال نقداً جديا يقصد الى طبيعة الكاتب أو الشاعر في بساطتها، ويقصد الى الرجل من حيث هو رجل. وقد يصطنع في ذلك التأنق والظرف ولكن ذلك ليس عيباً له ولا غضاضة فيه وانما يعيبه ذلك بعض منه لو لم يكن في النقد اللاتيني إلا تأنق وظرف لكفاه وفيه بحث وتحقيق، فأما وفيه التماس لطبيعة الكاتب والشاعر في بساطتها. فقد يكون التأنق والظرف شيئاً لا بأس به ولا معنى للزهد فيه.

وعجيب جداً من الاستاذ العقاد أن يكره الاعتراف بأن النقد الحديث كله يقوم رغم تطوره واختلاف المذاهب الحديثة فيه على الثقافة الأدبية اليونانية واللاتينية وعلى ما شرعه ارسطاليس في كتاب الخطابة والشعر من أصول البيان. غريب جداً كره الاستاذ العقاد لهذه الحقيقة. فان العقل الأوربي كله مهما تكن بيئته ومهما تكن جنسية اصحابه ومهما يكن حظه من التطور وليد العقل اليوناني الروماني سواء رضينا أم كرهنا ولست أدري لماذا يثقل الاستاذ العقاد أن تكون طبيعة ارسطاليس ومنطقه والهياته ورياضيات اقليدس اصولا لطبيعة الأوربيين الحديثين ومنطقهم والهياتهم ورياضياتهم ولا يرضى أن يكون نقد اليونانيين والرومانيين أصلا للنقد الحديث، مع أن اتصال الأدب الحديث بالأدب اليوناني واللاتيني مازال أقوى وأشد أمتن

من اتصال العلم الحديث بالعلم اليوناني . ولست ادري لم يرضى الاستاذ العقاد أن يكون تفكير اليونانيين والرومانيين في السياسة والتشريع أصلا من أصول التفكير الأوربي الحديث في السياسة والتشريع ولا يؤمن للنقد بمثل هذه الصلة؟ أم هل الاستاذ العقاد يفكر أن يكون بين العقل الاوربي الحديث وبين العقل اليوناني الروماني صلة ما بين الاصل والفرع؟ فأن كان هذا مذهبه فليس من السهل أن نلتقي أو ان نتفق . بل ليس من السهل أن يلتقي الاستاذ أو يتفق مع الاوربيين انفسهم .

ومن الذي يزعم ان بين النقد الحديث وبعد ما بينه وبين أصله القديم يقطع الصلة بينهما؟ وما عمل التطور اذن في حياة الاحياء؟ وهل بيننا نحن المتحضرين المترفين وبين آباءنا الذين كانوا يسكنون الكهوف والاغوار ويبيتون في الاحراش والغابات صلة ؟ ام هل نحن قوم قد خلقنا انفسنا وابتكرناها ابتكاراً ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يوافق الاستاذ العقاد على أن النقد لا يمكن أن يكون علما يذكر قبل أن يوجد علم النفس الحديث؟ أما انا فلا أعرف أن النقد علم ولا أحب له أن يكون علما وانما أرى كما قلت في غير هذا الموضع أن يكون النقد مزاجاً من العلم والفن وهو على هذا النحو قد وجد منذ عهد بعيد ، وجد منذ كان السفسطائيون يعلمون الناس في صقلية واثينا صناعة الخطابة وفن الجدل . وجد حين كان ارسطوفان يوازن بين ايسكولوس واير وبيدس أمام النظارة من اللاتينيين وهو يمثل لهم قصة الضفادع أو عيد سيرس ، وجد حين وضع ارسطاليس فن الخطابة وفن الشعر واستمر في روما عند سيرون وعند خلفائه من نقاد الرومان ، ووجد كذلك عند العرب . ووجد عند الاوربيين المحدثين قبل أن يوجد علم النفس الحديث . انما الذي نستطيع أن نوافق الاستاذ عليه هو أن هذه الفنون من النقد القديم قد أصبحت الآن لا ترضينا ولا تغنينا كما أصبحت طبيعة ارسطاليس وطب ابن سينا وفلك جالينوس لا تعجبنا ولا تغنينا ، ولكن هذا شيء وما يذهب اليه الاستاذ العقاد شيء آخر . اما أنا فاعتذر الى الاستاذ من أني لا أستطيع أن آخذ الاشياء هذا الاخذ السهل الهين القريب ولا أن اقف بها عند أصولها القريبة وإنما أحب ان اتبعها وان اتبعها الى ابعد ما استطيع أن اصل اليه من الاصول ، وقد يكون ذلك عيبا من عيوب الثقافة الغربية التي نشأت عليها أو من عيوب الثقافة اللاتينية التي تأثرت بها ولكني حريص على هذا العيب لأني اراه الأصل الصحيح لكل بحث علمي له صبغة من الجد . ولست أشك في ان الاستاذ العقاد نفسه حريص على هذا العيب لأن الثقافة الكسونية تكبره أشد الاكبار ويخيل الى أن قد كان كسونيا ذلك الرجل الذي لم يرضه ان ينتهي بالانسانية الى آدم فترقى بها أو تنزل في طبقات الحيوان الاخرى . ولست أدري لم تفردون حين يرد الناس الى الفرد ولا تفردون الادب الذي يرد النقد الحديث الى نقد ارسطاليس ؟

وبعد فايهما انشأ صاحبه : أهو علم النفس الذي انشأ النقد أم هو النقد الذي أنشأ علم النفس الحديث؟ مسألة تظهر غريبة بعض الغرابة لأن المعروف أن علم النفس فرع من فروع الفلسفة قد تطور حتى أصبح الآن علما تتناوله المعامل بالدرس والتحليل ، والنقد فن من فنون الادب . ومع ذلك فهذه الغرابة لا تثبت اذا فكرنا في ان هذا النقد انما هو تحليل للآثار الادبية وأن هذه الآثار الادبية انما هي صور لنفوس الادباء الذين أنشأوها ولنفوس القراء الذين استمتعوا بها . فدراسة الآداب دراسة للنفس الانسانية . وليست هذه الفكرة جديدة ولا عصرية وانما هي قديمة جدا عليها اعتمد ارسطاليس في كتاب الخطابة والشعر وعليها اعتمد العرب انفسهم في فنون البيان . ومن المحقق الذي لا شك فيه أن الدراسات النقدية التي نشرها سانت بوف قد أعانت جدا على تكوين علم النفس الحديث . ومن المحقق الذي لا شك فيه ان « تين » كان ناقدا أولا لكنه ألف كتاب العقل الذي لا يزال له خطره العظيم في علم النفس الحديث . فليس وجود النقد الحديث نتيجة لنشأة علم النفس ، وانما النقد مؤثر جدا في نشأة علم النفس ومتأثر جداً بهذا العلم ، وكلاهما قديم وضع اليونان أصوله الاولى . وانا معتذر الى الاستاذ العقاد من الرجوع دائما الى اليونان فقد أراد الله أن ترجع اليهم دائما كل ما اردنا تاريخ مظهر من مظاهر الحياة العلمية أو الفنية أو الادبية .

وهنا أريد ان اعاتب الاستاذ العقاد عتابا رفيقا . فقد زعم الاستاذ ان « سانت بوف » لا يشهد لمذهبي في نقد اللاتينيين ، وانما يشهد لمذهب الاستاذ لأن ما في « سانت بوف » من مزايا راجع الى تأثره بالثقافة الكسونية والعلم الكسوني . ذلك أن أم سانت بوف من اصل انجليزي وأنه كان يؤثر الشعر الانجليزي على الشعر الفرنسي في بعض الفصول التي كتبها عن الانجليز وفي بعض رسائله الخاصة .

اما أن « سانت بوف » كان يؤثر الشعر الانجليزي على الشعر الفرنسي فذلك شيء مشكوك فيه جدا الآن ، « سانت بوف » لم يكن يؤثر شيئا أو قل كان يؤثر كل شيء . أو قل ان اردت التحقيق ان اخص ما يمتاز به هذا الناقد العظيم انه كان شاكا مسرفا في الشك يقر اليوم شيئا ويعدل عنه غدا ويجوز أن يرجع اليه بعد غد . ولقد اراد « اميل فاجيه » ان يشخص عقلية « سانت بوف » فقال انه لم يؤمن بشيء ولم يقتنع بشيء ولم يؤثر شيئا على شيء حتى حين اعتنق الكاثوليكية في الدين والرومنتسم في الادب . وخدع عن نفسه زعماء الدين حتى هم « لامنيه » أن يستصحبه الى روما ، وزعماء الرومنتسم حتى فن عظيمهم « فيكتور هوجو » .

كان « سانت بوف » اذا عنى بشيء جديد من شعر أو نثر أو تاريخ فتن به فتنة المؤمن الغالي في الايمان حتى اذا أتقنه وقتله بحثا وفهما زهد فيه وانصرف عنه ونفر منه نفورا شديداً . ولم يكن هذا دأبه في حياته العقلية والادبية

فحسب . بل كان دائبا في حياته العملية والشعورية . فقد كلف بالمذاهب السياسية كلها وزهد فيها كلها وكلف بالكاثوليكية حتى فتن الكاثوليك وبالبروتستنتية حتى شغف به البروتستنتيون. وقال عنه «فاجيه» انه لم يكن يستطيع ان يحب امرأة بينها أو كان يستطيع ان يحب النساء جميعا . واذن فلا ينبغي ان يخدعنا «سانت بوف» حين يثني على الشعر الانجليزي ثناء المفتون به ، فلعله لم يكد يفرغ من هذا الثناء حتى انكره . وهو كذلك قد اثنى على الشعر الفارسي حين ظهرت ترجمة الشهنامة ثناء المفتون به وهو مع ذلك لم يعرف الفارسية ولم تفتها ثقافته حقاً. وهب هذا الناقد العظيم قد آثر الشعر الانجليزي حقاً على الشعر الفرنسي ولم يخدع نفسه ولم يخدع الناس عن رأيه الصحيح في ذلك فمن ذا الذي يزعم مخلصا ان هذا يكفي لاثبات ان الناقد مدين بمزاياه للثقافة الانجليزية؟

أؤكد للاستاذ أني لم أعتقد يوما من الأيام انه هو مدين حتى بوحي الاربعين وغيره من دواوينه ولا بكتابه عن ابن الرومي ولا بكتابه عن جوت ولا بأبحاثه الكثيرة المتعلقة للثقافة الانجليزية الخصبة التي يحبها ويذود عنها . وانما هو مدين بهذا كله كما يرى «سانت بوف» لشخصيته ولبيئته الخاصة التي نشأ فيها عقله والتي لا تكاد تتجاوز الكتب التي قرأها والمعاني التي فكر فيها والمسائل التي عرض لدرسها. فحب «سانت بوف» لشعر الانجليز ان صح لا يجعله مدينا بادبه للانجليز. وأين يقع تأثير الثقافة الانجليزية في «سانت بوف» من تأثير الثقافة الفرنسية فيه ؟ والذي كتبه سانت بوف عن الانجليز وعن الاجانب كلهم ليس شيئا يذكر بالقياس الى ما كتبه عن الفرنسيين في كتبه الضخمة المدهشة في هذه المجلدات الستة عن بورويال وفي هذه المجلدات الثمانية عن الصور ، وفي هذه المجلدات الثلاثة والعشرين التي سماها احاديث الاثنين. وفي هذين المجلدين عن شاتوبريان وأصحابه اين يقع ما كتبه «سانت بوف» عن الانجليز مما كتبه عن الفرنسيين بل مما كتبه عن اليونانيين واللاتينيين؟

فالاستاذ العقاد يعلم بالطبع أن «سانت بوف» عين أستاذاً للادب اللاتيني في الكوليج دفرانس ، ولما منعه الطلاب من القاء دروسه عن فرجيل لأنه كان يؤيد سياسة الامبراطورية الثانية طبع الدروس التي لم يستطع القاءها فكان منها كتاب قيم عن صاحب الانيادة . وقد كتب «سانت بوف» عن كثير من شعراء اليونانيين وعن الاسكندريين منهم خاصة . فما بال الأستاذ العقاد يرى تأثر «سانت بوف» في نقده بالثقافة الانجليزية ولا يرى تأثره بالثقافة اللاتينية واليونانية لأنه أحب شعراء اللاتين واليونان، وبالثقافة الايطالية لأنه كتب عن شعراء إيطاليا في عصر النهضة ، وبالثقافة الالمانية لأنه كتب عن جماعة من الألمان وعن جوت ؟

أما أن أم الناقد العظيم كانت من أصل انجليزي فالأستاذ يبالغ في نتيجته، فقد كانت أم «سانت بوف» نصف انجليزية كما تقول دائرة المعارف البريطانية ، وذلك ان أباها كان بحاراً فرنسيا وان أمها كانت انجليزية . فاذا كان الأستاذ العقاد يرى أن هذا يكفي ليكون «سانت بوف» مدينا بمذهبه في النقد للانجليز فليسمح لي بألا أذهب معه في هذه الطريق لأنها طريق شديدة الالتواء . للوراثة أثرها في تكوين الفرد ولكن من الاسراف أن نذهب في تقدير هذا الأثر مذهب الأستاذ ومن الغريب أن الذين أرادوا أن يدرسوا مذهب «سانت بوف» في النقد لم يحفلوا بهذا العنصر الانجليزي في تكوينه، فلم يلتفت «فاجيه» ولا «لنسون» الى أم «سانت بوف» كثيراً أما حين فرأى الأستاذ العقاد فيه عجيب ، فهو يرى أني لم أوفق حين استشهدت به أيضا لأن عمه علمه الانجليزية في صغره ولأن تين شغف بالآداب الانجليزية فكتب لها تاريخاً ، ولكن الاستاذ العقاد نفسه تعلم الانجليزية صغيراً وشغف بها وقرأ كثيراً من الآداب الانجليزية . والثقافة العربية ضعيفة بالقياس الى الثقافة الانجليزية . ومع ذلك فأنا لا أطمئن الى الحكم بأن الأستاذ مدين بأدبه للانجليز . فكيف اذا عرفنا أن الثقافة الفرنسية التي نشأ فيها تين ونبغ بفضلها قوية تستطيع أن تثبت للثقافة الانجليزية، وأن تين لم ينبغ بتاريخه للآداب الانجليزية وانما نبغ بكتب أخرى أجل خطراً من هذا الكتاب ، نبغ بكتابه عن لافونتين الذي نال به الدكتوراه من السوربون، ونبغ بكتابه الضخم الذي أرخ فيه فرنسا الحديثة ، ونبغ بكتابه عن العقل ، ونبغ بكتابه في فلسفة الفن . فهل يظن الاستاذ بعد هذا كله أني لم أوفق حين اتخذت سانت بوف وتين أعلى مثل للنقد اللاتيني الفرنسي ؟ وما ذنبي أنا اذا كان الله قد أراد أن يكون هذان الرجلان رمزين خالدين لحياة الادب الفرنسي في القرن الماضي ؟

ولقد بعدنا جداً عما كنا بسبيله من تشخيص النقد الفرنسي اللاتيني، أهو نوع من تتبع النكتة وتأتي الصالونات أم هو نقد يأدق معاني كلمة النقد ؟ لن ينفع الاستاذ العقاد أن يحتاط وأن يقول انه لم يرد النقاد الفرنسيين جميعاً، وانما أراد كثرتهم أو قلتهم، فليس من الحق أن كثرة النقاد الفرنسيين أو قلتهم كما يظن الاستاذ . وانما الحق الذي لا سبيل الى الشك فيه ان السمة الفنية الخالصة هي أظهر ما يتصف به النقد الفرنسي، وان من ظلم العلم والحق ان يقال في هذا النقد غير ذلك .

وأما بعد فهل يسمح لي كتاب آخرون أرادوا أن يخوضوا معنا في هذا البحث بأن أتحدث اليهم حديثاً قصيراً ولكنه لابد منه . فأما أحد هؤلاء الكتاب فالأستاذ سلامه موسى الذي تفضل

(البقية على صفحة ٤٦)